الفصل الأول

العـرب والوعـى التاريخـى

١ ـ من جيل إلى جيل

مازال جيلنا قادراً على العطاء منذ الأربعينات حتى الآن، بنضاله ضد الاستعمار والقصر والاقطاع فى الأربعينات وبلورة الحركة الوطنية المتعددة الفصائل، وبانتسابه إلى الثوارث العربية فى الخمسينات والستينات، ومقاومته للاستعمار والصهيونية فى الخارج، والتخلف والرجعية فى الداخل، ثم بمحاولاته المستميتة لرأب الصدع الذى حدث فى السبعينات والثمانينات باختفاء عبد الناصر والتحول الذى طرأ على الوطن العربى، وبالاستمرار فى الشهادة على التاريخ، حرصا على الثوابت التى شكلت النضال الوطنى لهذا الجيل.

وحرصا على تواصل الأجيال، من جيل إلى جيل جاوز الستين والسبعين إلى جيل الأبناء والأحفاد فى الثلاثين والعشرين، وشدًّا لأزر الجيل المتوسط فى الأربعين والخمسين الذى مازال يصارع بمفرده محاصراً بين جيل قديم حزين وجيل جديد غاضب، تبدأ سلسلة هذه المقالات لتحقيق هذه الغاية لعلها تقدر على درأ الاحباط عن الجميع ودفع روح التشاؤم. وبدون هذا التجاوز لحالة الضياع وروح اليأس لايتم عمل ولايحدث إبداع.

لقد سرى الاحباط، وعم التشاؤم، ودب اليأس فى روح الكثيرين من أبناء هذا الجيل . بينما ينعى بعض أبناء الجيل الماضى الحظ العاثر، ويبكون على الأمل الضائع والحلم المجهض وهم الذين ساهموا فى صياغته وتحقيقه. لجأ بعض أبناء الجيل الجديد إلى تفضيل حل أزمة الشخص على أزمة الوطن. فلجأوا إلى الهجرة إلى دول الخليج أو إلى العراق أو إلى الشام أو الى ليبيا بحثا عن الاستقرار المادى حتى لو تعثر الأمن الفردى. بينما لجأ البعض الآخر إلى الهجرة إلى الغرب، وتجريب الحظ فى دول أوروبا حتى أصبحت أوطاننا تلفظ أبناءها مماسبب معاداة للعرب والمسلمين وظهور نعرات للتخلص من الهجرة الأجنبية فى انجلترا وفرنسا

البيان ١٤/١٢/١٩٩٥

والمانيا حماية لسوق العمالة المحلية وحفاظا على الهوية العرقية التى تميز بها الغرب. وآثر فريق ثالث الهجرة إلى الداخل، إلى تناول المخدرات، نسيانا للهم، وتفريجا وهميا للكرب كما ظهر فى عديد من الأفلام. فالحلم أفضل من الواقع، والخيال فضاء من الحركة والتحقق. وقد تكون الهجرة إلى الداخل فى الدين واللجوء إلى الملاذ الايمانى سلما أو الانخراط فى الجماعات الإسلامية سراً إستعدادا للخلاص فى المستقبل مع ممارسة بعض أشكال العنف فى الحاضر. إذ يندفع الشباب من اللاشئ إلى كل شئ، من الواقع الأليم إلى الحلم الطوباوى، من البطالة والتهميش إلى إمارة العالم.

مازال إنجاز جيلنا، بالرغم من الإحباط النفسى والتغيرات على أرض الواقع، واضحا وقائما. فقد ساهم فى معارك التحرر الوطنى حتى تحقق. وترك بصماته على مسار القرن التاسع عشر عصر الاستعمار والهيمنة. كما ساهم فى إنشاء الدول الوطنية المستقلة كمؤسسات سياسية وتشريعية وتعليمية وإعلامية. وقام بعمليات التحديث، وصاغ خطط التنمية، وحقق أعلى المعدلات لها فى الستينات مقارنة بتجارب العالم الثالث فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وبدأ التصنيع محولا اقتصاد البلاد من الزراعة إلى الصناعة. وساهم فى ادارة القطاع العام بعد تأميم الشركات الأجنبية. واشترك فى بلورة أكبر مشروع نهضوى عربى منذ محمد على. وتحققت فى جيله أكبر تجربة وحدوية حديثة بين مصر وسوريا. كما حافظ الجيل المتوسط على وحدة اليمن، وإقامة دولة الامارات العربية المتحدة. ومازال التعاون الاقليمى قائما فى مجلس التعاون الخليجى واللجان العربية المشتركة للتنسيق بين الأقطار العربية، والاتحاد المغاربى مما يجعل الوحدة أملا يتحقق بالرغم من التعثر فى الخطوات والتضارب فى الأهواء. ومازالت أحزاب المعارضة تحاول أن تقاوم ماطرأ على الوطن العربى من تغيرات تحيد به عن ثوابته. والمثقفون يقاومون التطبيع، ومنظمات حقوق الإنسان تدافع عن الحريات العامة، وتقف فى مواجهة هيمنة الدولة على الداخل وتبعيتها فى الخارج. تقاوم

الخصخصة وبيع القطاع العام والتحول إلى اقتصاد السوق والذوبان في الاقتصاد العالمى.

لقد تغير العالم. وظهرت متغيرات عربية ودولية تكاد تعصف بالثوابت. لم تعد مقاومة الاستعمار أحد مكونات الجيل الجديد. فلم يعش مهانة الاستعمار، ولم يساهم فى إزاحته. ونشأت صورة جديدة للغرب الغنى المتحضر، ولأمريكا الثرى القادر. وبعد النضال ضد الهصيونية كحركة توسعية استيطانية تم الصلح مع عدو الأمس. وبدأت مشاريع السلام تعم المنطقة على الأرض وفى الاقتصاد والسياسة حتى الثقافة. وبعد حلم الوحدة العربية وظهور القومية العربية كايديولوجية سياسية فرضت نفسها على نظام العالم بين الأيديولوجتين الرأسمالية والاشتراكية بدأ التفتت والعودة إلى القطرية والحروب بين الأقطار والحروب الأهلية داخلها. وظهرت النعرات العرقية والطائفية والقبائلية والعشائرية. واستحال تحديد من عدو العرب ومن الصديق! وبدأت المشاريع الإقليمية المفروضة من الخارج كبديل عن القومية العربية مثل الشرق أوسطية والمتوسطية تكون فيها اسرائيل هى المركز والعالم العربى ومن حوله العالم الاسلامى المحيط. وتم التحول تدريجيا من الاشتراكية إلى الرأسمالية، ومن التخطيط الاقتصادى إلى الانفتاح واقتصاديات السوق، ومن القطاع العام والملكية العامة لوسائل الانتاج إلى القطاع الخاص والملكية الخاصة لقطاع الخدمات العامة وللبنوك. وبعد أن كان الاستقلال الوطنى لاتفريط فيه ضد سياسة المحاور والتكتلات والأحلاف العسكرية بدأت مظاهر التبعية السياسية والاقتصادية والعسكرية والمناورات المشتركة. وتم ارتهان الارادة الوطنية تحت رحمة الغذاء. فأكثر من نصف غذاء العالم العربى يأتى من الخارج، وأكثر من ثلاثة أرباع الغذاء فى مصر يأتى أيضاً من الخارج. واتسعت الهوة بين الفقراء والأغنياء. الأغنياء يزدادون غنى، والفقراء يزدادون فقرا بعد أن كانت الاشتراكية العربية هدفا قوميا للجميع لتذويب الفوارق بين الطبقات وتدعيما لمحدودى الدخل. وغابت الزعامات التاريخية داخل الوطن العربى مثل عبد الناصر وفى محيطه فى العالم الثالث، نهرو، تيتو، شوين لاى، سوكارنو، سيكوتورى، نكروما، جيفارا.. إلخ. ولم تستطع

حركات الشعوب أن تكون بديلا عن زعاماتها التاريخية إلا فى أوقات الضنك فى هيئات شعبية وقتية من أجل الخبز ودون مؤسسات حزبية أو ثقافية قادرة على الاستمرار. وانتهى عصر العملاقين الكبيرين، وبدأ قطب واحد يستأسد بالعالم. ولم تجد الشعوب المتحررة الحليف التقليدى، فانصاعت للقطب الواحد أوكادت.

ومع ذلك فمازال النضال المشترك بين الجيل الذى أوشك على الانتهاء والأجيال الجديدة قائما. فالقضايا مازالت مستمرة، والتحديات مازالت موجودة، بل تزداد قوة وعنفاً. فالتواصل بين الأجيال ضرورى. وتبادل الخبرات بينها إثراء للجميع.

مازالت قضايا الحريات العامة مطروحة، حرية الرأى خاصة وعدم التكفير أو التخوين أو العزل والاستبعاد، دفاعاً عن التعددية، وحق الاجتهاد، وأن هذا الوطن للجميع. الفكر ليس جريمة، والرأى ليس خروجاً على النظام، والنصح واجب، والارشاد فضيلة. ومازالت قضايا حقوق الانسان مطروحة ضد انتهاكها أمام غرب يدعى باستمرار أنه صاغها فى الاعلان العالمى لحقوق الإنسان والمواطن، ويمارسها فى نظمه السياسية، ويكوّن المنظمات الدولية والمحلية دفاعاً عنها. ومازالت الجمعيات القطرية والقومية مطاردة غير شرعية فى الوطن العربى. لاتجتمع الا خارجه. وتقوية المؤسسات الاجتماعية والجمعيات الأهلية دفاعاً عن المجتمع المدنى مازال مطلباً فى مواجهة سيطرة الدولة فى الداخل تغطية لتبعيتها فى الخارج. لذلك كثر الحديث عن أهمية المجتمع المدنى فى مواجهة الدولة وليست بديلا عنها. ومازالت العراق وليبيا محاصرتين امتهانا للكرامة العربية. فلم يعد العرب أحرارا فى بلادهم للتنقل والسفر، لافرق بين شعوب وقادة. ومازال العرب يعانون من الحدود والتأشيرات. كلهم متهمون على الحدود بالارهاب والمعارضة والاتصالات المشبوهة بينما يمر الأجانب وكأنهم أهل البلاد. تعز الكتب والمجلات العربية فى كل قطر خشية من مقال أو تحليل. ولا تكاد تحضر ثقافة قطر عربى فى أجهزة الاعلام فى قطر آخر. رفع الحدود الثقافية بين العرب

قضية. وحرية تنقل العرب في الوطن العربى ضرورة. والتكامل والتعاون والتنسيق العربى على الأرض أفضل من شعارات الوحدة فى السماء. وعودة مصر إلى مركزها وقيادتها فى قلب العالم العربى يحمى الأطراف من ردود الأفعال العكسية أو الشلل. فمركزية مصر لابديل عنها من مركزية اسرائيل. وتعدد المراكز فى مصر وايران وتركيا حماية للعرب والمسلمين بدلا من أن يكونوا هامشا لإسرائيل أو على أطراف أمريكا. والتنمية المستقلة مازالت هدف الجميع، حرصاً على الاستقلال وحماية للأوطان من التبعية. وحشد الجماهير العربية وراء مثقفيها الوطنيين يخرجها من سلبيتها وإدارة ظهورها للنظم وللقادة على السواء.

إن العالم العربى مخصب اليوم، وينتظر الحادث السعيد، المولود الجديد، ذكر أم أنثى، ولادة طبيعية أم قيصرية، فى سبعة أشهر أو تسعة، أقل أو أكثر. إنما يتوقف ذلك على الجهد العربى، وفى مقدمته جهد المثقفين ودورهم فى إنارة العقول، وإذكاء الوعى القومى، وبلورة وعى الجماهير. ويتحقق ذلك من خلال الجامعات ومراكز البحث العلمى أولا ثم من خلال أجهزة الاعلام خاصة الصحف السيارة ثانيا.

كما أن تعدد مراكز الفكر والابداع فى مصر والشام والمغرب والخليج، فى الجنوب والشمال والمشرق والمغرب يجعل الوطن العربى متعدد المراكز، متنوع الفكر. لقد بدأت مصر والشام منذ القرن الماضى فجر النهضة العربية. ثم تلتهما المغرب في النصف الثانى من هذا القرن. ومن يدرى فربما يبدأ الخليج بإمكانياته الجديدة موجة ثالثة من الإبداع الفكرى مستفيداً من التجربتين السابقتين فى القرن الماضى وفى هذا القرن.

وإذا كانت تجارب الماضى فى مصر والشام والمغرب قد انفتحت على الغرب والثقافة الغربية فقد تكون تجربة الخليج رائدة فى الانفتاح على الشرق وجسرا بين العرب وآسيا ليس فقط من حيث السكان ولكن أيضاً من حيث تجارب التنمية والعمق الثقافى. فقد كان العمانيون أسبق من الغربيين عامة والبرتغاليين خاصة، وقد سرت فيهم روح الأندلس، إلى اكتشاف جنوب شرق آسيا. وليس مستبعداً أن تلحق " الصقور" العربية " بالنمور" الآسيوسية.

٢ - تشاؤم أم تفاؤل؟

يسود الوعى العربى منذ مايقارب عقدين من الزمان روح التشاؤم والاحساس باليأس والاحباط، وكأن نهاية العالم قد قربت، وأن التاريخ قد انتهى وتوقف عن المسار . وقد بدأ هذا الاحساس منذ هزيمة يونيو حزيران ١٩٦٧ ولم تخفف منه حرب الاستنزاف فى ١٩٦٩ ولاحرب اكتوبر فى ١٩٧٣. فمازال جرح الهزيمة غائراً لم يندمل، يحتاج إلى انتصار حاسم فى حلم جديد. وقوّى هذا الروح اختفاء عبد الناصر ورحيله من الساحة العربية فى ١٩٧٠، واحساس العرب بأن القائد الذى أولوه ثقتهم قد اختفى. فقد سقط هذا الحائط المنيع الذى كان يحمى العرب من غوائل الزمان، والقادر على استمرار الحلم ولو على مستوى الكلمات والأحلام.

لقد تسارعت الأحداث بالتحول عن السياسات الأولى واختيارات الخمسينات والستينات بل والانقلاب عليها من النقيض إلى النقيض مما أصاب الجيل الحالى بالارتباك وعدم التصديق لأى منها. وانتهت الثوابت فى السياسات العربية، من النضال ضد الاستعمار إلى التحالف معه، ومن مقاومة الصهيونية إلى الصلح معها، ومن الاشتراكية إلى الانفتاح، ومن القومية إلى القطرية، ومن الوحدة إلى التجزئة، ومن التخطيط والاقتصاد الوطنى المستقل إلى الديون الخارجية والطاعة للبنك الدولى وصندوق النقد.

وغابت الرؤية الجديدة التى تأخذ هذا الواقع العربى الجديد فى الاعتبار. فقد اختلط العدو بالصديق. ولم يعرف العرب مدى ثقلهم فى الداخل وأين وضعهم فى النظام العالمى الجديد خاصة بعد انهيار الحليف الاشتراكى فى الشرق، ومراوغة الصديق الجديد فى الغرب. وعز الابداع السياسى إلا من حلول مفروضة من الخارج مثل الشرق أوسطية والمتوسطية استعادة للأحلاف القديمة، حلف بغداد، وحلف طهران، والحلف المركزى.

البيان ١٩٩٥/١٢/٢٥

وزاد من ذلك العجز عن التأثير فى مجرى الأحداث، وإيقاف مذابح البوسنة والهرسك فى الغرب، والدفاع عن استغلال الشيشان فى الشرق، وأخيراً الدفاع عن الجزر العربية فى باب المندب فى الجنوب. وتبدلت الأحلاف، روسيا والصين يسلحان اسرائيل. وأمريكا تسلح العرب! تعارض روسيا وقف العدوان الصربى وتؤيده، وتعارضه أمريكا وتوقفه! وفى الداخل، العراق عدو وإسرائيل صديق عند البعض، والسودان عدو وأمريكا صديق عند البعض الآخر!

ضاعت الثوابت فى الوعى العربى، فتوقف عن حركته فى التاريخ. يستمر فى مقاومة الاستعمار أم يتحالف معه؟ يستمر فى مقاومة الصهيونية أم يكون حليفا معها فى مقاومة الارهاب وعنف الحركة الاسلامية مهرولا إليها مخاطباً ودها وساعيا إلى صداقتها؟ وحدث فصام فى شخصية العربى الجديد بين تاريخ يتعلمه ويفرح به، وحاضر يحزن له ولايتكيف معه. فالقديم لم ينته بعد، والجديد لم يبدأ بعد.

ولما استحالت الرؤية العامة لواقعه وللعالم من حوله انكفأ العربى على نفسه، يحل مشاكله، ويسعى فى الأرض ليقيم أوده، ويصارع فقره، ويهرب من قهره. فدخله لايكفيه. ورزقه لايرضيه. فقد ارتفعت الاسعار ومرتباته محلية. ويقضى اليوم سعيداً لواستطاع توفير وجباته، وتدبير مواصلاته، وتهيئة التعليم والصحة وتوفير المسكن له ولأسرته. اقتصر طموحه على إشباع الحاجات الرئيسية، والاكتفاء بهموم الدنيا، والتفريج عنها بسعادة الآخرة.

فان لم يستطع التكيف والرضا بالقليل فانه يهرب إلى عالم المخدرات أوينخرط فى الجماعات السرية، وكلاهما تحت الأرض. وإن آثر العمل فوق الأرض فليس أمامه إلا العنف المسلح مع عالم لم يتكيف معه، ووسط مجتمع يناصبه العداء.

وما يحدث من ضياع على مستوى الفرد يحدث أيضا على مستوى الوطن. فينزوى كل قطر عربى. وفى غياب القومية التى تربط بين الأقطار يتفتت القطر

ويتجزأ تحت الدعاوى الطائفية والقبلية والنعرات العرقية والدفاع عن الأقليات فى مجتمعات الأغلبية فيها مضطهدة وبغير حقوق. ويشب الخلاف بين الأقطار، بين مصر والسودان، ومصر وإيران، وسوريا والعراق، والكويت والعراق، وقطر والبحرين، والسعودية واليمن، وموريتانيا والمغرب، والجزائر والمغرب، وأخيراً سوريا والأردن وفلسطين على الحمة!

وتشتد أزمة الديموقراطية لدرجة العنف المسلح فى الجزائر ومصر والسعودية. وتعيش المعارضة العربية خارج الأوطان. كما تشتد أزمة حقوق الانسان. ولاتجد منظمات حقوق الانسان القطرية أو العربية مكانا لعقد مؤتمراتها إلا خارج الأوطان، وتظل ملاحقة من أجهزة الأمن ووزارات الداخلية أو الشؤون الاجتماعية لاتعترف بشرعية نشاطها أوتهددها بالحل فى كل وقت.

هذه المتغيرات وغيرها هى التى تبعث روح اليأس والقنوط، وتصيب الوعى العربى بالاحباط والتشاؤم، بحيث تطغى على الجوانب الأخرى التى تبعث أيضاً على التفاؤل والاصرار، ومواصلة النضال دفاعاً على الثوابت التى كونت الوعى العربى الحديث منذ القرن الماضى. وبالتفاؤل يمكن استمرار الابداع واجتهاد وإعادة صياغة الحلم وتجنيد الناس.

لقد أعاد عبد الناصر قبل أن يرحل بناء الجيش، وأعد خطة "بدر" التى بها تم العبور. وكان يحدد وقف اطلاق النار شهرا بشهر، رافعا شعارات " لاصوت يعلو فوق صوت المعركة"، " ازالة آثار العدوان"، الأراضى العربية المحتلة قبل سيناء"، "اللاءات الثلاث"، "لاصلح ولامفاوضة ولا اعتراف"، "خسرنا المعركة ولم نخسر الحرب". ومارس ذلك فى معركة رأس العش، وإغراق المدمرة إيلات. وفى نفس الوقت أعاد بناء الداخل، وقضى على مراكز القوى، وأقر بالتعددية السياسية داخل تحالف قوى الشعب العامل، وأعاد رسم خريطة لمصر من أجل مضاعفة الدخل القومى كل عشر سنوات، واستمر فى البناء الاشتراكى بنيته فى تأميم تجارة الجملة وقطاع المقاولات للقضاء على الرأسمالية المستغلة .

وهناك فى الوعى العربــى عدة تسـاؤلات عـن المتغيرات المحليـة والدوليـة. وهناك اجتهادات عديدة نابعة من الداخل حول التكامل العربى، إعادة صياغة ميثـاق جامعة الدول العربية، إحياء التضامن من العربى، والدعـوة إلـى المصالحـة العربيـة بعد المصـارحة، الحوار مع دول الجوار، إيران وتركيا. لـم تصـب كلهـا فـى اختيـار عربى أو رؤية عربية جديدة. وتصدر مراكز الأبحاث نتائجهـا، ويُشـارك كثير مـن معاهد الأمن القومى فى ذلك كله من أجل إعـداد رؤيـة عربيـة للوطـن العربـى فـى القرن الواحد والعشرين. ويظهر الابـداع الأدبـى كارهـاً للابداع السياسـى. فلايوجـد وطن مثل الوطن العربى بهذا القدر الهائل فى الابداع فـى الشـعر والروايـة والقصـة والمسرح والموسيقى والفن.

ومازالت بعض الأقطار العربية وأقطار الجوار صـامدة فـى مواجهـة التبعيـة والأحلاف فى المنطقة. ويتجلى ذلك فى صمود ليبيا والعراق ضد الحصـار، وانتهاج السـودان وإيـران وسـوريا سياسـات مسـتقلة تعبـر عـن اسـتقلال الأوطـان. واندلعـت المظاهرات فى مصر والمغرب والأردن ضد العدوان الأمريكى علـى العـراق أثنـاء حرب الخليج الثانية. ومازالت بعض الأقطار العربيـة صـامدة فـى مواجهـة التطبيـع مثل جماهير الشعب فى مصر والسودان. ومازالت المقاومة للاحتلال الصهيونى فى جنوب لبنان وفى فلسـطين. والدولـة الفلسـطينية قادمـة علـى اسـتحياء. كمـا اسـتقلت جنـوب أفريقيـا مـن النظـام العنصـرى الـذى نشـأ فيهـا وفــى فلسـطين فـى ١٩٤٨، ويتحرران معاً فى نفس الوقت فى أوائل التسعينات بعد حوالى نصف قرن .

وفى مواجهة الفقر هناك ملايين من الشباب العربى ومـن الأمهـات العربيـات ينحتون فى الصخر، ويعملون فى الحقول وفى المصـانع، ويشقون الطرقات، ويبنـون المسـاكن، ويحفـرون المنـاجم، ويشـيدون المبـانى الجديـدة. وتـم إبـداع آليـات للبقــاء لمقاومـة الفقـر، فـى التجـارة والبيـع علـى نواصـى الطرقـات وفـى الأكشـاك وفــوق الـرؤوس والظهــور. وفــى نفـس الوقـت تنـدلع مظاهـرات الخـبز فـى مصـر والمغرب والأردن، تطالب برفع الأجور، وخفض الأسعار، ومشاركة الفقراء فى أموال الأغنياء.

وفى عديد من الأقطار العربية يبدأ الخيار الديمقراطى فى الأردن، ويستمر نضال المعارضة فى مصر من أجل انتخابات نزيهة، والنضال من أجل حقوق الإنسان، وحماية حرية الصحافة، والوقوف أمام القانون الجديد. ويستمر القضاء فى مصر حاميا لحقوق المواطنين والدستور. ويتم الافراج عن المعتقلين السياسيين فى سوريا. وتتم الانتخابات فى الجزائر مع مراقبين من الجامعة العربية ودوليين، ونجح المرشح بحوالى ٦٠٪ وليس بنسبة ٩٩,٩ ٪ كالعادة فى باقى الانتخابات العربية. كما توجد معارضة قوية للمثقفين فى البحرين دفاعاً عن الحريات السياسية والدستور، وضرورة إجراء انتخابات حرة تقوم على التعددية السياسية. كما بدأ المثقفون فى السعودية وجمعيات حقوق الإنسان وبعض الأئمة والخطباء المستنيرين فى التساؤل حول الأوضاع العامة ومستقبل شبه الجزيرة العربية. وصحافة الخليج مازالت تعبر عن التيارات الرئيسية، القومية والليبرالية. كما استقطبت الصحافة العربية فى العواصم الأوربية عديداً من الأقلام البارزة فى الثقافة والسياسة والأدب والتاريخ.

وفى مواجهة التفتت والتشرذم فى الوطن العربى تبرز أطر جديدة للمجتمع العربى. فقد حافظت اليمن على وحدتها. كما استمرت دولة الامارات العربية المتحدة. وبقى مجلس التعاون الخليجى. نشأت لجان التنسيق بين مصر والأردن الأهلية فى لبنان. وبدأ الحوار مع دول الجوار، إيران وتركيا. وأصبحت الجمهوريات الاسلامية فى أواسط آسيا رصيداً للعرب فى السياسة بعد أن خلا رصيدهم فى الثقافة وفى القلوب. وشدت النمور الآسيوية العرب نحو نموذج جديد للتنمية المستقلة فى ماليزيا والملايو. وانتشر الإسلام فى أوروبا وأمريكا كرافد ثقافى وسياسى للشعوب الأوربية بالرغم من عنف هذه الجماعة الإسلامية أو ذاك فى مواجهة العنف العنصرى ضد المسلمين فى ألمانيا وفرنسا وانجلترا.

هذه العوامل كلها تجعل الوعى العربى أيضاً أقرب إلى التفاؤل . ودون هذا التراكم من الخبرات والتجارب الوطنية فى الوعى العربى لا يحدث استئناف لابداعات الجيل الماضى فى هذا الجيل. وكيف تنسى ذاكرة العرب الخير ولا تتذكر إلا الشر؟ ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض﴾.

٣ ـ الموقف الحضارى

كثر الحديث عن "أزمة" الفكر العربى، "أزمة" الثقافة العربية، "أزمة" الواقع العربى خاصة فى هذا الجيل بعد هزيمة يونيو حزيران ١٩٦٧ بعد أن كان الحديث عن النهضة العربية، المشروع القومى العربى، والوجدان العربى المشترك الذى يتمثل فى وحدة الهدف والمصير. ويبدو أنه إذا ما تعثر الواقع بدا الفكر فى أزمة. واذا ما أُصيب بردّة وانتكاسة ألقيت المسؤولية على الذهن والعقل والتصور والرؤية فى مجتمع مثالى يرى أن قيمته فى ماضيه وتراثه ومُثله وفكره.

والحقيقة أن هذا الإحساس بالأزمة إحساس حقيقى بالرغم من حرب اكتوبر ـ تشرين ١٩٧٣، وبالرغم من بزوغ الدولة الفلسطينية. هناك إحساس فعلى بأزمة الفكر، وأزمة الواقع، وأزمة الوعى العربى المعاصر بين فكر غير مطابق لواقع منفلت غير مسيطر عليه، ووعى عربى حائر ومتسائل، يكاد يقرب من الإحباط ويصل إلى حافة اليأس.

وإن تحليل هذه الأزمة لايمكن إلا أن يكون فى إطار أعم، فهى جزء من كل، ونتيجة لموقف حضارى أعم. ويعنى الموقف الحضارى وضع العرب فى التاريخ بين ماضيهم ومستقبلهم، بين ذاتهم وغيرهم، بين مُثلهم وواقعهم أى بين ماينبغى أن يكون وماهو كائن. الوجود الأول فى الزمان أى فى مسار التاريخ. والوجود الثانى مع الآخرين فى اللحظة الراهنة. والوجود الثالث مع النفس وقواها، بين ماتريد وما تستطيع.

ويمكن تشبيه الموقف الحضارى بمثلث ذى أضلاع ثلاثة وإن كانت غير متساوية فى الطول. فالضلع الأول يمثل التراث القديم الذى مازال حياً فى قلوب الناس كما وصل إلينا من الفترة الأولى للحضارة الاسلامية بعد أن تكونت واكتملت فى القرون السبعة الأولى. ويمتد عبر أربعة عشر قرنا فى آخر صياغة له وهو

البيان ١٩٩٦/١/٨

التراث الإسلامى. وقد يمتد إلى أبعد من ذلك فى التراثين اليهودى والنصرانى فى شبه الجزيرة العربية. وقد يمتد إلى أعمق من ذالك فى حضارات الشرق القديم فى مصروالشام وحضارة مابين النهرين وفارس واليمن، وهى الحضارات التى كانت تصب فى شبه الجزيرة العربية. ولكن التراث الاسلامى هو الأكثر حضوراً فى العمق التاريخى للوعى العربى على مستوى الشعور، وإن كانت الصياغات الأخرى للحضارة العربية قبل الإسلام حاضرة على مستوى اللاشعور. ففى وعى كل عربى مازال يرقد حمورابى وآمون.

والضلع الثانى هو تراث الآخر الحاضر، والمتفاعل مع تراث الأنا، وهو التراث الغربى فى اللحظة الراهنة فى مسار الثقافة العربية عبر التاريخ. فمنذ فجر النهضة العربية فى القرن الماضى والثقافة العربية على صلة بالغرب الحديث، تترجم وتنقل وتلخص وتشرح وتمثل وتقابل وتعارض وتجمّع وتختار. فأصبحت الثقافة الغربية جزءاً من فكرنا المعاصر فيما سمى بازدواجية الثقافة. ولكنها أكثر حداثة لايتجاوز عمقها أكثر من مائتى عام منذ رفاعة رافع الطهطاوى فى القرن الماضى وحتى الآن. لقد كانت الحضارة العربية فى علاقة دائمة مع الآخر، اليونانى والرومانى غرباً، والفارسى والهندى شرقاً ، والتركية والآسيوية شمالا، والافريقية الزنجية جنوباً. ولكن الذى عاش فى الوجدان العربى وهزه وكاد أن يفقده توازنه هو الغرب الحديث بالرغم من قصر المدة والتعامل معه.

والضلع الثالث هو الواقع العربى المعاصر الذى نعيش فيه والذى يتفاعل فيه الموروث القديم والوافد الغربى. هو مجموعة الأمثال العامية والتقاليد الشعبية والأذواق الفنية والابداعات الأدبية وسير الأبطال والأزجال والملاحم والروايات الشفاهية فى الأفراح والمأتم، بالاضافة إلى الضنك والفقر والضيق والكبت والاحباط المتولد عن الأنظمة السياسية والقوى الاجتماعية وشتى أنماط السلطة فى المجتمع، لافرق بين سير الصحابة الموروثة أو العلم والتكنولوجيا الوافدة أو أبوزيد الهلالى والزناتى خليفة على المقاهى والمصاطب والساحات الشعبية. وإشكال

الضلع الأول بسيط وواضح. وهو أن الموروث القديم نشأ فى ظروف وتكوّن فى فترة تاريخية لم تعد موجودة. وقد تكون أحد مظاهر أزمة الثقافة العربية المعاصرة أننا نفكر بثقافة الانتصار ونحن نعيش فى واقع الهزيمة. نتصور العالم بعقلية خير أمة أخرجت للناس ونعيش واقع الاحتلال والقهر والتجزئة والتبعية والتخلف واللامبالاة والاغتراب. ما نتعلمه ونعلمه شئ وما نفكر فيه ونعيشه شئ آخر. مازلنا نمارس عقائد الفرقة الناجية ونكفّر الفرق الضالة، نتمثل أيديولوجية السلطة ونستقصى المعارضة. ومازالت برامجنا الدينية تقوم على الالهيات والغيبيات دون الانسانيات والمشاهدات. ومازلنا ندرس فى معاهدنا فقه الغنيمة، وفقه العبيد، وفقه الذمة، وفقه النساء، وفقه العبادات، العالم قد تغير. فلا غنائم فى الحرب، ولاعبيد فى المجتمع، ولافرق بين مواطن وآخر فى عقيدة أو بين رجل وامرأة فى المواطنة. ومازالت الطرق الصوفية تناجى على ضفاف النيل بالسودان والأرض فى حاجة إلى زراعة وشق الطرق لنقل الفواكه المتساقطة. ومازلنا فى التشريع نعطى الأولوية للنص على المصلحة والمصلحة أساس التشريع. وحضرت فى وعينا العلوم النقلية كما ورثناها، القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه دون أن نحولها إلى علوم عقلية، فى حين غابت عن وعينا العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية. ومن ثم غاب من الحس التجريب، ومن الذهن الاستدلال، وفى العلوم الانسانية غابت الجغرافيا والتاريخ، وضع الانسان فى الأرض وفى الزمان، وحضرت اللغة والأدب وكأن العرب قد عادوا إلى بؤرة إبداعهم القديم فى الشعر العربى. أزمة الثقافة العربية أن الروح فى عصر والبدن فى عصر آخر.

وإشكال الضلع الثانى، وهو الوافد الغربى، بسيط وواضح كذلك. وهو أننا ننقل تراثنا فى عصر الاستعمار ومن ثقافة المستعمر نفسه منذ استعمار انجلترا للهند والقضاء على دولة المغول ثم استعمار البرتغال وأسبانيا لجنوب شرق آسيا منذ بداية العصر الحديث الأوربى ثم استعمار فرنسا للجزائر فى ١٨٣٠. فارتبط فجر النهضة العربية بثقافة الغرب الاستعمارى. وبدأت عملية تحديث المجتمع العربى على يد الأقلية المتغرّبة . وارتبطت تجربة الحداثة بالتغريب. فنشأت

أزدواجية الثقافة. وزاحم الوافد الغربى الموروث القديم. الأول ثقافة الأقلية الحاكمة، والثانى ثقافة الأغلبية المحكومة. الأولى معاصرة والثانية تقليدية. فنشأ الخُلف الثقافى بين النخبة والجماهير. فاذا ما تأزمت النخبة ثارت ثقافة الجماهير عليها كما هو واضح الآن فى الجزائر بوجه خاص وفى مصر عن بعد.

وأصبحت علاقة الأنا بالآخر علاقة غير سوية. فالآخر يبدع والأنا تنقل. الآخر ينتج والأنا تستهلك. وجيلا وراء جيل ينشأ عند الآخر مركّب عظمة ويتكوّن عند الأنا مركّب نقص. فالآخر هو المعلم الأبدى، والأنا هو التلميذ الأبدى . وكلما أبدع الآخر نقل الأنا. ولما كان معدل إبداع الآخر أسرع بكثير من نقل الأنا تزداد المسافة الحضارية بين المبدع والناقل. ولايستطيع الناقل اللحاق بركب الحضارة وهو يلهث سعيا حتى يُصاب بالصدمة الحضارية، ويقبل مكانه فى التاريخ هامشيا على مركز، ثم ركنا فى متحف للآثار.

تتجلى أزمة الثقافة العربية فى هذا الضلع الثانى فى نقل ثقافة من حضارة وزرعها فى حضارة أخرى. وهى مجتثة الجذور من الأولى ولاتنبت فى الثانية. جزء منفصل عن الكل فى الأولى، وجسم غريب فى الثانية. أصبح للوافد الغربى وكلاء حضاريون داخل الثقافة العربية مما سبب انتفاضة الموروث القديم الذى مازال حاملا للثقافة الوطنية. ولم تُجد محاولات التأقلم شيئاً فى الليبرالية العربية أو الاشتراكية العربية أو الماركسية العربية.وظل الاصلاح الدينى هو الوعاء الطبيعى لمسار العرب فى التاريخ.

إذا كان الضلع الأول، الموروث القديم، يمثّل الماضى فى الحاضر، وكان الضلع الثانى، الوافد الغربى يمثل المستقبل فى الحاضر، فإن الضلع الثالث، الواقع العربى المعاصر، يمثل الحاضر نفسه الذى يتم فيه تفاعل الماضى والمستقبل، وتفاعل الموروث والوافد. فهو أقصر فى الزمان من الضلعين الأولين. إنه مجرد اللحظة المتجددة فى كل جيل.

وتسيطر على هذا الضلع الخطابة السياسية وهى أقل مستوى من الأيديولوجيا السياسية المحكمة. ويتم ذلك من خلال الاعلام من أجل السيطرة على أذهان الناس بما فى ذلك الاعلام الدينى الذى هو صدى للاعلام السياسى. يختلط فيه الجد بالهزل، الوطن بالرقص، ونشرة الأخبار بحديث الروح، وحرب الخليج مع المسلسلات الاذاعية، وتأسيس الوطن بفوازير رمضان، ومذابح البوسنة والهرسك ودخول ياسر عرفات رام الله وبيت لحم بفتيات الإعلانات.

واشتدت الأزمة الاقتصادية، واحتاج الناس إلى تسلية وتفريج للهم وهم فى ضنك العيش من الفقر والقهر. وأحيانا تضيع الكرامة أمام التسول والتبعية. ويزداد الاحساس بالعجز والشعور بالاحباط. وينعزل المثقفون، ويدينون بالولاء لوسائل الاعلام الأجنبية، يستقون منها أخبار الأوطان.

لقد نشأت أزمة وطنية مماثلة قبيل الثورات العربية الأخيرة وجاء خلاصها عن طريق "الضباط الأحرار". والآن تبدو أزمة أكثر تعقيداً ولايبدو لها خلاص قريب بعد أن شوهت الثورة العربية الليبرالية القديمة، وشوهت الانتكاسة والردة الحالية انجازات الثورة العربية. والحركة الاسلامية غاضبة عنيفة تخاصم الكل وتعاديها النظم السياسية. والعالم يتشكل من جديد بعيداً عن العرب وعلى حسابهم.

٤ ـ الوعى التاريخى

الوعى التاريخى هو أساس الوعى السياسى. وإذا ماتعثرت السياسات وتفككت أواصر الوحدة الوطنية إلى حد للاقتتال بين الإخوة الأعداء كما هو الحال فى الجزائر بين السلفيين والعلمانيين فانما يرجع ذلك إلى غياب الوعى التاريخى. فالسلفيون يقومون بأدوار أجيال مضت دفاعاً عن الدين والهوية. والعلمانيون يقومون بدور أجيال قادمة، دفاعاً عن الدنيا والعصر. والسؤال لكل من الفريقين: فى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش؟ مادور الأجيال الحالية؟ ما طبيعة الحاضر الذى لايمكن رده إلى الماضى كما يفعل السلفيون أو إلى المستقبل كما يفعل العلمانيون؟

والحاضر أيضا ليس مجرد الحصول على السلطة كما هو الحال فى نظم الحكم أو فيما تتطلع إليه أحزاب المعارضة بل هو القدرة على معرفة طبيعة المرحلة التاريخية التى يمر بها المجتمع فى مسار التاريخ. وفى حالة المجتمع العربى، هو الانتقال من مرحلة إلى مرحلة، من القديم إلى الجديد، من التراث إلى الحداثة دون التفريط فى أحدهما كما يفعل الإخوة الأعداء، وتمسكا بالأصالة والمعاصرة، وحرصاً على التغير من خلال التواصل، وإبقاء على الهوية العربية الاسلامية فى مسار التاريخ.

وقد حاول الفكر العربى المعاصر طرح الأشكال منذ فجر النهضة العربية فى القرن الماضى. حاول الفكر الليبرالى البحث فى التاريخ. فوجده الطهطاوى فى تاريخ العرب قبل الإسلام وفى سيرة ساكن الحجاز أو فى التاريخ الغربى، تاريخ شارل العاشر أو تاريخ مملكة فرنسا. ولكنه ظل يبحث عن نموذج مطلق وجده فى فلسفة التنوير كنموذج للنهضة العربية: الحرية، والشورى، والتعددية الحزبية، والدستور، والبرلمان، والملكية المقيدة، والتعليم. وهو ما انتهى إليه أيضاً خير الدين *

البيان ١٩٩٦/١/١

التونسى. ولم يحاول السؤال: لماذا غاب مبحث التاريخ باعتباره وعيا تاريخيا فى الوعى العربى؟ ظلت الليبرالية حلما وأملا سرعان ما أجهض بعد اندلاع الثورات العربية الأخيرة. ومازال النضال من أجلها قائما دفاعاً عن الحرية والديمقراطية والتعددية وحقوق الانسان دون البحث فى الجذور التى تمنع المجتمع المصرى من أن يكون حرًا.

كما حاول الفكر الاصلاحى الدينى تأسيس وعى بالتاريخ فى صورة فلسفة للتاريخ عند الأفغانى تقوم على القيم الأخلاقية مثل الحياء والاخلاص والشرف وكأن مسار التاريخ هو سلوك أخلاقى للأفراد والجماعات. كما أضاف محمد عبده فى آخر " رسالة التوحيد" تحليلا للوعى بالتاريخ كجزء من علم العقائد، انتشار الإسلام بسرعة لم يشهد لها التاريخ من قبل وذلك لأن الوحى ممكن الوقوع. كما وصف نشأة العقائد وتطورها فى التاريخ مبيناً أنها فى صياغاتها ومشاكلها من صنع حوادث التارِيخ وفى مقدمتها الفتنة الكبرى، والخلاف حول الامامة والسياسة ثم الخلاف بعد الاقتتال، حول الايمان والكفر والفسوق والعصيان والنفاق. وآثر أديب اسحق صياغة فلسفة للتاريخ تماثل مبادئ الثورة الفرنسية وأفكار التنوير. ثم حاول عبد الله النديم العودة إلى الواقع المصرى العربى الإسلامى لصنع التاريخ والمساهمة فى مسار الأحداث، مقاومة للاحتلال، وتوحيداً للأمة، وشحذا للهمم، وصموداً فى المقاومة. فالتاريخ يسير طبقاً لقانون حيوى تملؤه طاقات الأفراد، وتسيِّره حركة الجماهير. ولكن الفكر الاصلاحى انتهى فى الجيل الحالى عند الحركة الاسلامية إلى فكر مطلق خارج التاريخ والى إسلام مطلق خارج الزمان والمكان يقوم على شعارات " الإسلام هو الحل" ، " الإسلام هو البديل" ، " الحاكمية لله" ، " تطبيق الشريعة".

وحاول أيضاً الفكر العلمى العلمانى أن يصوغ وعيا تاريخيا على مماثلة مستحيلة وقياس تاريخى بين الوعى العربى والوعى الغربى. فنظرا لأن تجربة الغرب الحديث كانت الانقطاع مع الماضى، الكنيسة وأرسطو، لصالح العقل والعلم

والمجتمع المدنى فكذلك تكون تجربة العرب الحديثة. قام بذلك شبلى شميل وفرح أنطون ويعقوب صروف وسلامة موسى وزكى نجيب محمود. وهو إغفال لخصوصية كل وعى تاريخى ولكل تجربة حضارية لصالح نموذج أوحد هو النموذج الغربى.

وعلى هذا النحو وبالرغم من محاولات الفكر العربى المعاصر بتياراته الثلاثة البحث فى التاريخ إلا أنه لم يساعد فى بلورة الوعى التاريخى. بل أن الدعوات القطرية والقومية والاسلامية التى تجلت فيها تغفل أيضاً التحليل التاريخى. فالدولة القطرية وريثة تمزيق دولة الخلافة بعد الحرب العالمية الأولى وتوزيع تركة الرجل المريض والاحتلال الأوروبى لها ثم الاستقلال بعد حركات التحرر الوطنى. الدولة القطرية بنت هذا التاريخ فى هذا القرن. وليست لها أية شرعية أخرى إلا فى هذا المسار التاريخى.

والدولة القومية أيضاً بنت التاريخ، وكرد فعل على القومية الطورانية لعجز دولة الخلافة عن توحيد الأمة فى إطار التعددية واضطهاد النزعات القومية، العرب والأرمن، دفاعاً عن وحدة الدولة. هكذا كانت البداية عند ساطع الحصرى. ثم تطورت أثناء حركات الاستقلال الوطنى، وأصبحت تمثل وحدة النضال الوطنى وكما جسدها حزب البعث العربى الاشتراكى. وبلغت الذروة عندما تبنتها الناصرية فأصبحت القومية العربية ومبادؤها فى الحرية والاشتراكية والوحدة أساس الثورات العربية والتجارب الوحدوية الحديثة، خاصة وحدة مصر وسوريا.

والأمة الإسلامية كما عبر عنها الأفغانى فى الجامعة الاسلامية وكما هى موجودة الآن لدى الحركات الاسلامية المعاصرة تمسك بالتاريخ القديم وبالموروث السياسى حتى دولة الخلافة، وتأكيد على الشرعية ووحدة الأمة التى لا تقوم على الجغرافيا القطرية ولا على العرق بل على وحدة العقيدة وشمول التصور. تحولت إلى مطلق لاتاريخى بل وأحيانا كحركات مناهضة للوطن القطرى وللقومية العربية.

وأمام هذه الاختيارات الثلاثة التى هى أبعاد فعلية فى الوعى التاريخى غمضت الرؤية، وتضاربت الأهداف، وتصارعت القوى السياسية دون تحليل لأعماق الوعى التاريخى أو للدوائر الحضارية المتداخلة التى يعيش فيها الوعى التاريخى، باستثناء الخطاب السياسى الاسلامى والناصرى الذى تحدث عن الدوائر الثلاث: مصر والعروبة والاسلام.

وبالرغم من هذه المحاولات المعاصرة لبلورة الوعى التاريخى إلا أنه لم يتحقق بعد فى الزمان والمكان فى اللحظة الحاضرة، يئن تحت المطلقات، ويتبخر بفعل الأيديولوجيات السياسية. غاب الوعى التاريخى النظرى أى التأمل فى التاريخ. لذلك رفض محمد على أن يقرأ كتابا فى التاريخ أهداه إليه ابنه ابراهيم باشا بعد فتح الشام وعثوره عليه هناك لأنه يصنع التاريخ. وقد يكون هذا هو السبب فى غياب التفكير فى التاريخ عند القدماء لأنهم كانوا يصنعون التاريخ منذ الفتوحات الأولى حتى سقوط الأندلس. وهى الفترة التى أرّخ لمعظمها ابن خلدون قبل أن تبدأ الفتوحات الثانية فى المشرق ابتداء من محمد الفاتح والدولة العثمانية والتى كتب فى بدايتها السخاوى " الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" دفاعا عن علم التاريخ وطبقات المؤرخين اعتماداً على الروايات ودون بلورة مسار التاريخ فى الوعى التاريخى.

وقد يرجع السبب الفعلى لغياب الوعى التاريخى هو غياب الجذور أى تصور التاريخ باعتباره تقدما فى الموروث الثقافى. فقد اقتصر التاريخ عند المؤرخين على الحوليات أو الطبقات سواء اعتماداً على الروايات أو على وصف الأحداث. والحوليات سرد زمنى دون تحديد لمسار وعى تاريخى. والطبقات سرد لأجيال دون تحديد تراكم تاريخى عبر الأجيال يكوّن الوعى التاريخى.

وفى العلوم الإسلامية القديمة حضرت تصورات للتاريخ ولكنها لم تساهم فى الوعى بالتاريخ باعتباره تقدما. ففى علم العقائد فى ملحقات الامامة، كان التاريخ انهيارا وسقوطا من النبوة إلى الخلافة إلى الملك العضود، من الأفضل إلى المفضول، من الفرقة الناجية إلى الفرق الضالة، من الوحدة إلى التشتت والتفرق، من الحق إلى الأهواء، فخير القرون قرن النبى ثم الذى يلونه . ثم تتم مقابلة ذلك التصور المنهار للتاريخ بظهور المجدد على رأس كل مائة سنة أو بالمهدى المنتظر

الذى سيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، مما يفسر الاعتماد حتى الآن على البطولة أو الزعامة فى تاريخنا السياسى الحديث.

وفى علوم التصوف ظهر التارخ الصاعد، فى رمز الإسراء والمعراج. فالطريق الصوفى صعود إلى أعلى، على سلم المقامات والأحوال، ابتداء من التوبة حتى الفناء، انقاذاً للنفس بعد أن استعصى انقاذ العالم، واعتماداً على الخيال إن استعصى تحليل الواقع، ورؤية بالقلب إن صعب الفهم بالعقل.

وفى علوم الحكمة ظهر التاريخ باعتباره تاريخ الشعوب والحضارات وإبداعات العرب والترك والفرس والهند مع مقارنات بينهما لاتخلو من شعوبية. وهو ماوقع فيه ابن خلدون أيضاً فى تاريخ العرب والبربر. اختلط التاريخ هنا بعلم العمران كما اختلط عند الفارابى بالعلم المدنى. ومع ذلك لايكوّن التاريخ محوراً فى علوم الحكمة. فالحكمة ثلاثية: منطق وطبيعيات والهيات.

وفى علم أصول الفقه ظهر التاريخ فى شرع من قبلنا واستبعاده كمصدر من مصادر التشريع واكتفاء بالبراءة الأصلية. ثم ظهر تقدم مصادر التشريع من النص المدوّن الى الاجتهاد البشرى، من القرآن والسنة إلى الاجماع والقياس. كما ظهرت دلالة الناسخ والمنسوخ على التقدم فى التشريع وإجماع العصر السابق ليس ملزماً للعصر اللاحق. ومع ذلك ظل الوعى التاريخى تشريعيا قانونيا نصّيًا إستنباطيا دون تراكم تاريخى كاف لبلورة الوعى التاريخى.

كان يمكن لقصص الأنبياء ولأحاديث آخر الزمان أن تكون جذور الوعى والاعجاب بدور الأنبياء فى الماضى دون إدراك مساهمتهم فى صنع التقدم واكتمال الوعى حتى يستقل عقلا وارادة فى مرحلة خاتم الأنبياء واكتمال الوحى. وغلبت على أحاديث آخر الزمان الرغبة فى الخلاص فى المستقبل وانتظار لحظة الفرج. وقوى ذلك فى الوعى بالزمان، الماضى والمستقبل، دون تعميق الحاضر، صب الماضى فيه، وانطلاق المستقبل منه.

يظل ابن خلدون هو الذى حاول بلورة الوعى التاريخى للقرون السبعة الأولى، وأصفا الدورة الأولى، ومبنيا أسباب النهضة وأسباب الانهيار.

٥ ـ بداية القرن الخامس عشر أم بداية القرن الواحد والعشرين؟

يكثر الحديث منذ عدة سنوات وسيستمر حول بداية القرن الواحد والعشرين، تحديات القرن الواحد والعشرين، العرب والقرن الواحد والعشرين حتى أصبح القرن الواحد والعشرون هما ثقيلا على النفس، نخافه أكثر مما نثق به. نبتعد عنه أكثر مما نقترب منه، نخرج منه أكثر مما ندخل فيه.

والحقيقة أن هذا الهاجس يدل على اغتراب حضارى، خروج الأنا من حضارتها ودخولها فى حضارة الآخر. ليس الأمر مجرد تقليد أو عادة بل يدل فى العمق على غياب الرؤية التاريخية لمسار الأنا ولمسار الآخر.

الوعى التاريخى هو وعى بمسار الأنا فى التاريخ. هو إحساس بالذات المتمايز عن الآخر، إحساس بالهوية قبل الاحساس بالتغاير. وهو تمايز طبيعى مبدئى، يثبت وجود الأنا قبل وجود الآخر. ففى المنطق الصورى أن ألِفًا تساوى ألفا قبل أن تكون ألف غير باء.

هذا الوعى التاريخى بالأنا هو أساس الوعى الحضارى. فالتاريخ هو مسار الحضارة فى الزمان. التاريخ هو تفاعل الحضارة مع الزمان. الحضارة بنية التاريخ، والتاريخ مسار الحضارة. الحضارة حاضر التاريخ، والتاريخ ماضى الحضارة. الحضارة آخر مرحلة فى تطور التاريخ، والتاريخ هو مسار الحضارة كلها.

ودون هذا التفاعل بين الوعى الحضارى والتاريخى يستحيل العمل الوطنى وتغمض الرؤية. فالعمل ليس مجرد الانتاج المادى أو التنفيذ الآلى للأمر بل أنه جزء من كل، يصب فى مشروع أكبر يحدده الموقف الحضارى، ويصوغه الوعى التاريخى.

البيان ١٩٩٦/١/٢٢

وإذا كان للعرب تاريخ قبل الإسلام وبعده فان وعيهم التاريخى ليس بمثل هذا الحضور وكأنهم شعوب حديثة العهد منذ التحرر من الاستعمار، وكأن دولهم الوطنية من بقايا الدولة العثمانية، ودولة الخلافة، بعد أن تفتتت كى يقضمها الاستعمار الغربى قطعة قطعة. وإذا كان للعرب حضارة قديمة فان ولعهم بالحداثة والعصرية جعلهم يجترون الماضى دون وعى حضارى بتكوينه ونشأته وتطوره من أجل استئنافه وليس تكراره، والانتقال من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية أخرى.

وحتى القرن الماضى عصر بناء الدولة المصرية الحديثة وعندما أراد محمد على إنشاء دولة قوية فى مصر تكون مركزاً جديداً للخلافة كان التاريخ الهجرى هو الشائع فى مطبعة بولاق. وكان الوعى التاريخى العربى الاسلامى مازال حاضراً فى وعى المفكرين والأدباء. لم توجد دولة منفتحة على الغرب قدر دولة محمد على. ومع ذلك لم يتحول الوعى التاريخى للأنا إلى الوعى التاريخى بالآخر، إحساسا بالتمايز، وربما لوجود صراع بين دولة الخلافة والاستعمار الغربى الجديد الذى بلغ الذروة فى القرن الماضى.

ومنذ بداية هذا القرن، وعلى وجه التحديد منذ خسارة تركيا الحرب الأولى ١٩١٤ ــ ١٩١٨ بدأ التداخل بين وعى الأنا ووعى الآخر. وبدأ يظهر على الصفحات الأولىة للكتب وعلى أغلفتها التاريخان الهجرى والميلادى نظراً لانهزام تركيا وبداية الاستعمار الغربى الحديث. وكان التلاميذ فى المدارس يكتبون التاريخ الهجرى على اليمين والتاريخ الميلادى على اليسار حتى الحرب الثانية وقبيل الثورات العربية الأخيرة.

ثم انزوى التاريخ الهجرى كلية أوكاد فى مصر والشام والمغرب أهم ثلاثة مراكز حضارية، وساد التاريخ الميلادى مما يكشف عن بداية الاغتراب، اغتراب الأنا فى الآخر، والتخلى عن المسار التاريخى للأنا، والدخول فى المسار التاريخى للآخر. أما فى المناطق الحضارية التقليدية فى شبه الجزيرة العربية فمازال

التاريخان مستعملين وربطهما معا بكلمة "الموافق" ولكن البداية بالميلادى الذى يوافق بالهجرى. البداية بالآخر ثم النهاية بالأنا. فالآخر هو الذى يحدد مسار الأنا أولا ثم تنعكس الأنا على ذاتها كى تكتشف مسارها الخاص. الآخر هو المركز، والأنا هو المحيط. اغتربت الأنا فى الآخر ثم همشت نفسها بنفسها. ومن يدرى فربما بمزيد من الحداثة، وعندما تلحق المناطق الحضارية التقليدية بالمناطق الحضارية الأكثر حداثة فى مصر والشام والمغرب قد يختفى التارخ الهجرى، ويسود التاريخ الميلادى. وتُصبح الحضارة العربية العالمية جزءاً من الحضارة الغربية، وتسير فى مسارها.

وتكون النتيجة الاغتراب الكلى للأنا فى الآخر، وترك الأنا مسارها التاريخى الخاص وتخرج عن ذاتها، وتضيع هويتها التاريخية، وتلبس ثوب غيرها، وتسكن فى غير مسكنها. فتضيع خصوصيتها. ومن ناحية أخرى يقوى مسار الآخر الذى تصب فيه كل الحضارات، وتصبح كل الحضارات هوامش له، فروعاً صغيرة تصب فى النهر العظيم. وبدلا من التحرر تستمر التبعية، وبدلا من استغلال المحيط من المركز تصبح جوانب هامشية فيه، وبدلا من أن تتعدد المركز يقوى المركز الأوحد فى عالم ذى قطب واحد، فتتفق الحضارة والسياسة، ويتطابق الماضى مع الحاضر، مصير واحد لافكاك منه وكأنه قدر تاريخى للجميع.

والحقيقة لايوجد مسار تاريخى واحد لكل الحضارات والشعوب. هناك مسارات متعددة بتعدد الشعوب والحضارات. والمسار الأقوى هو الذى يجذب باقى المسارات. وتكتشف التواريخ الموجودة الآن عن هذه المسارات المتعددة. فالتاريخ اليهودى يبدأ منذ أكثر من خمسة آلاف عام منذ خلق اللـه الأرض ومن عليها. ولم تتنازل عنه حتى الآن تدعيماً للدولة العبرية. والحضارة الفارسية فى عصر الشاه لم تتنازل عن التاريخ الشاهنشاهى القديم اعتزازاً بعصر البطولة الأول حتى جاءت الثورة الاسلامية فأعادته إلى مساره الاسلامى. وتاريخ اليابان يبدأ بعام تولية كل

امبراطور كما كان الحال فى مصر القديمة. فالامبراطور الحديث أو الفرعون القديم بداية مرحلة جديدة من مراحل التاريخ.

وفى الوعى العربى الحديث يتداخل الوعى التاريخى، العربى الاسلامى، وعى الأنا، والوعى الغربى، وعى الآخر، نظراً للقرب الجغرافى وللتفاعل التاريحى. فكلا الوعيين على شاطئ البحر الأبيض المتوسط فى الجنوب والشمال وفى الشرق والغرب. وعى الأنا جنوبى شرقى، ووعى الآخر شمالى غربى. أما الشرق الأقصى باعتباره وعيا آخر فلم يتداخل مع الوعى العربى الاسلامى حتى الآن بالرغم من الجوار الجغرافى. فثلاثة أرباع المسلمين فى آسيا، والقرابة التاريخية، وبالرغم من غزوات الشرق من التتار والمغول وروسيا القيصرية على أواسط آسيا واليابان فى جنوب شرق أسيا.

وعى الأنا، الوعى العربى الاسلامى، ووعى الآخر، الوعى الغربى، يتداخلان فى وعينا المعاصر بالرغم من تمايز المسارين. يشمل الوعى العربى الاسلامى التاريخ القبطى والأرثوذكسى والمسيحى الشرقى بوجه عام بما فى ذلك اليهودى العربى فى حين يشمل الوعى الغربى، اليهودية الغربية والمسيحية الغربية. ونظراً لشيوع العلمانية فى عصوره الحديثة فان هويته أصبحت غربية أكثر منها يهودية مسيحية.

وعى الأنا العربى الاسلامى مر بمرحلتين سابقتين فى الماضى وهو على أعتاب مرحلة ثالثة. الأولى هى المرحلة الزاهرة التى تكونت فيها الحضارة الإسلامية وبلغت الذروة فى القرن الرابع، عصر ابن سينا وأبى حيان التوحيدى والبيرونى والمتنبى. كانت منفتحة على الحضارات الأخرى، الهندية والفارسية شرقاً واليونانية والرومانية غربا، والتركية شمالا والزنجية جنوباً . كانت متعددة الاتجاهات، مدارس فقهية أربع، اتجاهات فلسفية عقلية وإشراقية، طرقا صوفية كثيرة، وفرقا كلامية يحاور بعضها بعضاً. وبلغت حرية الفكر والتعددية الذروة. ثم جاء الغزالى وفضل الحسم والقضاء على التعددية باسم العقيدة الواحدة، الأشعرية،

للسلطان، والتصوف العملى للجماهير. وكفرّ الفلاسفة والباطنية والمعتزلة حتى تقوى الدولة فى مواجهة الأعداء فى الخارج. وكانت الحروب الصليبية قد بدأت. فبدأت المرحلة الأولى فى الأفول، وكرر القرنان السادس والسابع ما أبدعته القرون الأولى. وحاول ابن رشد فى المغرب فى القرن السادس إحياء العقل والاجتهاد من جديد ولكن بعد المسافة ونهاية، المرحلة الأولى وسيطرة الفقهاء لم تحوّل الرشدية إلى حركة فى التاريخ. ثم جاء ابن خلدون فى القرن الثامن ليؤرخ للحضارة العربية، بداية وتطوراً ونهاية واضعاً قانونا للتاريخ، من البداوة إلى الحضارة ثم إلى البداوة من جديد، يفسر به قيام الدولة وسقوطها.

ثم جاءت المرحلة الثانية بعد ابن خلدون من القرن الثامن حتى القرن الرابع عشر، سبعة قرون أخرى تشرح فيه الحضارة ما أنتجته من قبل فى الفترة الأولى. فإذا توقف العقل نشطت الذاكرة. ودُوّنت الموسوعات الكبرى فى مصروالشام وتركيا كما يجتر جمل الصحراء وهو بارك ما أكله من قبل وهو واقف. كان هذا فى العصر التركى المملوكى. وفى نهايته بدأت حركات الاصلاح فى المائتى سنة الأخيرة لتضع حداً لهذا التوقف والركود، تقارن وعى الأنا بوعى الآخر بعد أن بدأ التداخل بينهما. ويضع شكيب أرسلان السؤال: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ ويسأل الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ويحاول الأفغانى وإقبال والكواكبى وأديب اسحق ومحمد عبده وضع فلسفة جديدة فى التاريخ تقوم على النهضة وليس على الانهيار دون أن تبزغ شخصية فى وزن ابن خلدون لتنهى هذه الفترة الثانية فى القرن الرابع عشر، وتبدأ فترة جديدة ثالثة فى القرن الخامس عشر، فنحن الآن فى نهاية الفترة الثانية وبدايات الفترة الثالثة التى تحاول اللحاق بالفترة الأولى فترة الابداع والازدهار، العصر الذهبى الثانى.

أما وعى الآخر فيسبقنا بمرحلة سابقة من القرن الأول الميلادى حتى القرن السابع الذى ظهر فيه الإسلام. ومن ثم يكون الوعى الأوربى قد مر بثلاثة مراحل. الأولى مرحلة آباء الكنيسة اليونان والرومان منذ القرن الأول الميلادى حتى القرن السابع فى الغرب أولا ثم فى الشرق. وهى المرحلة التى تم التفاعل فيها بين

الحضارتين اليونانية والرومانية من ناحية والديانتين اليهودية والمسيحية من ناحية أخرى. تمت فيها صياغة العقائد الرسمية وإزاحة حركات الهرطقة وتقنين الأناجيل ودخول المسيحية فى قلب الامبراطورية الرومانية، وتأسيسها فى الشرق العتيد قبل انطلاقها إلى شمال أوروبا. وكانت هذه فترة المسيحية الأفلاطونية.

ثم بدأت الفترة الثانية من القرن الثامن حتى القرن الرابع عشر. فانتشرت المسيحية من الجنوب إلى الشمال على مدى قرنين من الزمان. وبدأت الكتابات الأولى منذ القرن التاسع. ونشأت المدارس والجامعات فى القرن الحادى عشر. ثم بدأت الفلسفة العقلية والجدل العقلى فى الظهور فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر والفلسفة العلمية التجريبية فى القرن الرابع عشر. قرنان للتبشير، وقرنان فى العصر الوسيط المتقدم، وقرنان فى العصر الوسيط المتأخر. ونشأ ذلك كله تحت أثر الفلسفة الاسلامية وترجماتها عبر العبرية إلى اللاتينية. وكان أرسطو هو نموذجها.

ثم بدأت الفترة الثالثة من القرن الخامس حتى القرن الواحد والعشرين وهو ما يسمى بالعصور الحديثة، ابتداء من الاصلاح الدينى فى الخامس عشر، والنهضة فى السادس عشر، والعقلانية فى السابع عشر، والتنوير فى الثامن عشر، والوضعية فى القرن العشرين. وفى نهايته تبرز الأزمة، مابعد الحداثة، والتنوير السالب، وتتكشف نهاية المرحلة الثالثة فى القرن القادم دون مابداية جديدة فى الأفق.

ومن مقارنة المسارين التاريخيين للأنا والآخر نجد تقابلا كسيفين يتبارزان. فى المرحلة الأولى التى أبدعنا فيها عصرنا الذهبى الأول كان الغرب فى مرحلته الثانية، مرحلة العصر الوسيط. وفى المرحلة التى توقفنا فيها نحن فى المرحلة الثانية العصر التركى المملوكى كان الغرب فى مرحلته الثالثة، مرحلة العصور الحديثة التى أبدع فيها العقل والعلم وحقوق الانسان والعقد الاجتماعى والتقدم التاريخى.

والآن يسير المساران فى تجاهين مختلفين. مسار الأنا ينهى الفترة الثانية فترة الركود ويبدأ فترة ثالثة فترة النهضة الثانية. ومسار الآخر ينهى الفترة الثالثة، فترة النهضة الحديثة ودون أن يبدأ فترة رابعة، مازالت ملامحها بعيدة فى المجهول.

نحن إذن لسنا فى ناهية القرن العشرين وعلى مشارف القرن الواحد والعشرين بل فى نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر منذ ستة عشر عاماً. وعى الآخر فى نهاية فترة دون بداية أخرى، ووعى الأنا فى نهاية فترة وبداية فترة أخرى. وعى الآخر فى غروب ووعى الأنا في شروق.

ولماذا لانتنبأ والعلماء ورثة الأنبياء؟

٦ ـ نهاية التاريخ أم بداية التاريخ؟

انتشرت فى الآونة الأخيرة عدة نظريات أبدعها الاعلام الغربى وأجهزته ومراكز أبحاثه لشغل العالم به وتهميشها والتعليق عليها، قبولا أو رفضا، حتى يظل الغرب مركز الابداع، والعلماء والمفكرون فى محيطه شارحين على المتون كما كانوا يفعلون طوال التاريخ منذ الغرب القديم عند اليونان حتى الغرب الحديث فى أوروبا وأمريكا.

ومن هذه النظريات فى العقد الأخير " نهاية التاريخ "، "صدام الحضارات" "نظام العالم الجديد"، "ما بعد الحداثة"، والبقية تأتى حتى لايكون عند باقى الشعوب والحضارات وقت للابداع الذاتى على تحليل الواقع الذاتى وعلاقته بالآخرين. فتحدد علاقة الأنا بالآخر بناء على ما سيقدمه الآخر من صور مختلفة للأنا من صنعه وخلقه، ولايكون أمام الأنا إلا الرفض أو القبول دون إيجاد البديل.

ونظرية " نهاية العالم" ليست جديدة بل هى معروفة طوال التاريخ الغربى فى عصوره الحديثة، منذ القرن الرابع عشر حتى القرن العشرين، أى على مدى سبعة قرون هى عمر الغرب الحديث.

ففى القرن الرابع عشر تم أيضاً إعلان نهاية التاريخ للمرة الأولى تاريخ العصر الوسيط والفكر المدرسى لبداية تاريخ جديد تتم فيه العودة الى اليونان القديم وأحياء آدابه، رجوعاً الى الوثنية القديمة التى عظمت الانسان والطبيعة، وأرست دعائم الديمقراطية بدلا من النظام العقائدى الكنسى الوسيط. وفرح الغرب بسقوط الكنيسة ونهاية العقيدة القديمة وبالعودة الى مصادره الوثنية فى الأساطير اليونانية والرومانية القديمة.

البيان ١٩٩٦/٢/٥

وفى القرن الخامس عشر، عصر الاصلاح الدينى، تم أيضاً إعلان نهاية التاريخ للمرة الثانية، تاريخ المسيحية منذ نشأتها عند السيد المسيح حتى عصر مارتن لوثر. فهذا التاريخ المسيحى " الكاثوليكى" كله تاريخ انحراف عن جوهر تعاليم السيد المسيح، ترك أقواله ومواعظه وأخذ أقوال الكنيسة وقراراتها، ووضع سلطة وتأسيس كهنوت لم يضعها المسيح ولم يدع إليها. وفرضت عقائد وأقامت طقوساً لم يفرضها ولم يقمها السيد المسيح. وحاربت ورفعت السيف وأقامت امبراطورية على الأرض والسيد المسيح دعا الى الرحمة والتسامح، فملكوت السماء ليس فى هذا العالم. جاء مارتن لوثر وأعلن نهاية التاريخ الكنسى كله معلنا حرية الإنسان المسيحى، وعودته الى الكتاب المقدس وحده، وحقه فى التفسير دون احتكار أحد، والصلاة بلغته الوطنية، الألمانية، والاعتزاز بمواطنته ووطنه ألمانيا، وطلب المغفرة من الله مباشرة دون توسط الكنيسة أووساطتها.

وفى القرن السادس عشر، عصر النهضة، تم إعلان نهاية التاريخ للمرة الثالثة، نهاية العصور القديمة كلها وبداية العصور الحديثة، نهاية التبعية لأفلاطون أو أرسطو أو العرب وبداية الاعتماد على الذات، نهاية سلطة القدماء، سلطة النصوص المنقولة عن اليونان أو المترجمة عن العرب، وبداية سلطة العقل، نهاية سلطة المعارف المسبقة، والمسلمات، وبداية النقد والتمحيص والفحص، نهاية سلطة القدماء فى الشعر والأدب والفلسفة والقانون والاجتماع وبداية التحول نحو المحدثين، نهاية عصر الآباء والأجداد، وبداية عصر الأبناء والأحفاد، نهاية الموروث القديم وبداية الطبيعة ككتاب مفتوح، وباجتماع العقل والطبيعة تنشأ العصور الحديثة.

وفى القرن السابع عشر تم إعلان نهاية التاريخ للمرة الرابعة نهاية الفكر دون المنهج، ونهاية التأملات دون إرساء القواعد التى تهدى الذهن الى الحقيقة، نهاية المعارف القديمة كلها وبداية مناهج المعرفة، سواء المنهج العقلى عند ديكارت أو المنهج التجريبى عند بيكون. ولايوجد الاهذان الطريقان للمعرفة، العقل وهو

طريق الرياضيات أو التجربة وهو طريق العلوم الطبيعية. والفلسفة موزعة بين الطريقين وكذلك العلوم الإنسانية الوليدة دون أن يكون لها طريق خاص. وتصارع الطريقان، وتناقض المنهجان مما كان بداية لأولوية الجزء على الكل ونهاية عصر الكل الشامل، والمعرفة المطلقة، والمنهج الواحد.

وفى القرن الثامن عشر تم إعلان التاريخ للمرة الخامسة، عصر الثورة الفرنسية، نهاية الملكية والإقطاع وبداية الجمهورية والدستور، نهاية العبودية والقهر وبداية الحرية والثورة، نهاية الظلام وبداية التنوير، نهاية السلطة فى المعرفة والسياسة، ونهاية الكنيسة ورجال الدين، ونهاية الظلم الاجتماعى والتفاوت الطبقى، وبداية العقل المتفجر فى المجتمع، وبداية المجتمع المدنى العلمانى، وبداية الحرية والاخاء والمساواة. وفجّر نابليون بونابرت فى الشعر والأدب والموسيقى إبداعات لانهاية لها، تعلن نهاية التاريخ بل توقفه كلية على مبادئ الثورة الفرنسية التى ستعم العالم كله، ألمانيا وأمريكا وروسيا ومصر.

وفى القرن التاسع عشر تم إعلان نهاية التاريخ للمرة السادسة، بمصر المثالية المطلقة فى ألمانيا وعصر الوضعية المطلقة فى فرنسا، وعصر العلوم الطبيعية والثورة الصناعية فى انجلترا. فقد تحقق الفكر فى التاريخ. وانتهى مسار الحضارات من الشرق القديم حتى اليونان والعرب ثم صعب أخيراً فى الغرب الحديث. والدولة الوطنية، المانيا الموحدة، هى تجسد الحقيقة فى التاريخ. وانتهت الفلسفة، واكتمل الفن، ولم يعد للتاريخ مستقبل. يتحقق فى عقل الفيلسوف أوفى وجدان الفن أو فى نظام الدولة.

وفى القرن العشرين تم إعلان نهاية التاريخ للمرة السابعة بعد الحرب الثانية، نهاية الحلم الغربى والعصور الحديثة والمثالية الغربية بعد حربين طاحنتين، وبداية الاجتهاد فى الوعى الأوروبى، وظهور أفكار العدم والتناقض، وموت الاله ثم موت الانسان، وتردد مفاهيم السقوط، والأفول، والنهاية، والقلب، والانهيار، والانحدار، والاضمحلال، وضياع الروح، والموت فى النفس، وظهور أدب العبث واللامعقول،

وبداية تحطيم العقل، ونقد التنوير ونقد الحداثة. فبدأ الغرب يهدم مابناه من مثل التنوير وقواعد الحداثة.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي والنظم الشيوعية فى المانيا وأوروبا الشرقية، وهو أحد علامات الانهيار العام فى القرن العشرين، أراد الغرب الرأسمالى انتهاز الفرصة وأعلن " نهاية التاريخ ". ويعنى بذلك نهاية الاشتراكية، هذا التحدى الأعظم الذى واجه الغرب الرأسمالى منذ القرن الماضى. وكان هذا الإعلان أحد مظاهر تجديد الرأسمالية لنفسها على مستوى الفكر، بإعلان نهاية التحدى الاشتراكى ونهايته الى الأبد، وأن الرأسمالية والليبرالية الغربية هو النظام الأبدى للبشر. لم يعد التاريخ مبدعا لنظم جديدة بعد أن تحقق إبداعه الأول والأخير. وعلى جميع الشعوب الاستفادة من هذا النصر الأخير. فلم يعد التجريب ممكناً، ولم تعد المحاولات مجدية، " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً"!.

والحقيقة أن التحدى الاشتراكى، والبديل الآخر للرأسمالية مازال قائماً. فالذى انهار ليس الاشتراكية باعتبارها هدفا أو حلما أو غاية بل النظم السياسية التى تبنتها، الداروينية المادية التطورية على مستوى الفكر، والنظم الشمولية على مستوى الواقع. فضاعت الروح فى الفكر، وانعدمت الحرية الفردية والاجتماعية فى الواقع. وتظل الاشتراكية والعدالة والاجتماعية مطالب ثابتة للإنسان، ومقاصد دائمة فى الوعى الاجتماعى. والاضطرابات الأخيرة فى فرنسا ونتائج الانتخابات الأخيرة فى البلاد التى كانت تحت الحكم الشيوعى تشهد على ذلك.

وفى حموة الفرح بنهاية التاريخ وإعلان نهاية النظم الشمولية تغطى صيحات الفرح وطبوله أزمة المجتمع الرأسمالى: البطالة، التضخم، توقف معدل التنمية، المنافسة بين الدول الصناعية، الديون، الخلل فى ميزان المدفوعات، الهبات الشعبية ضد الاستغلال، سيطرة رأس المال على الحكومات والدول. واذا انهارت الرأسمالية فلمن يبقى التاريخ؟

إن الإعلان المستمر عن نهاية التاريخ هو تأكيد على السيطرة، والرغبة فى الهيمنة، الجديد على القديم، وألمانيا على سائر أوربا، والغرب على الشرق، والرأسمالية على باقى المذاهب السياسية، واقتصاديات السوق والربح على اقتصاديات الحماية، والاقتصاد الحر على التخطيط. يعنى الاعلان عن نهاية التاريخ أن القوة المسيطرة أصبحت هى المركز، فقد تم النصر لها. فهو إعلان أيديولوجى سياسى وليس إعلانا عن حقيقة علمية تاريخية. فالتاريخ لايتوقف فى حضارة المركز المسيطر أو حضارات الأطراف. انما المهم المسار لصالح من؟ وفى اتجاه ماذا؟

وإذا كانت نهاية التاريخ حقيقة، والانتصار النهائى الكاسح للرأسمالية واقعاً فلماذا هذه الحرب الدائرة ضد حضارات الأطراف فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية لوضع حد لايجاد بديل آخر غير الخيار الرأسمالى الذى أصبح ضرورة حتمية بعد انهيار النظام الاشتراكى؟ لماذا كل هذا الاهتمام بالصحوة الإسلامية، وبالحركات الاسلامية وبالبديل الاسلامى إن كان التاريخ قد توقف بالفعل؟

إن نهاية التاريخ تعنى فى الحقيقة وبالنسبة لنا نهاية النمط الغربى للحياة، ونهاية المشروع الغربى، أكبر قدر ممكن من الانتاج، لأكبر قدر ممكن من الاستهلاك، لأكبر قسط ممكن من السعادة، بشقيه الشيوعى والرأسمالى. تعنى نهاية التاريخ نهاية تجربة الحداثة فى الغرب منذ بدايتها فى القرن الرابع عشر حتى نهايتها فى القرن العشرين.

ولكن التاريخ ليس هو تاريخ الغرب، التاريخ أعم وأشمل من تاريخ حضارة بعينها فى فترة زمنية محددة. إنما التاريخ مستمر داخل الغرب ونهايته، فى آسيا والتجربة الآسيوية فى الصين واليابان وكوريا وهونج كونج وتايوان وسنغافورة وتايلاند وأندونسيا والملايو، والجمهوريات الاسلامية فى أواسط آسيا وإيران وفلسطين. والتاريخ مستمر فى أفريقيا، فى مصر والجزائر وجنوب أفريقيا. والتاريخ مستمر فى أمريكا اللاتينية فى الأرجنتين والبرازيل وكوبا.

قد تعنى نهاية التاريخ بالنسبة للغرب بداية التاريخ بالنسبة لنا، بعد عصر التحرر من الاستعمار، وتأسيس الدولة الوطنية، وإقامة المجتمع الحديث، وبداية عصر قوميات جديد فى آسيا وأفريقيا، وبداية الصحوة الاسلامية لتستأنف مسيرة القومية العربية، وبداية الدولة الفلسطينية، وبداية التعلم من تجارب العرب منذ فجر النهضة فى القرن الماضى حتى هذا القرن، وبداية مرحلة جديدة من التعاون العربى بين العرب وأنفسهم، وبين العرب ودول الجوار، إيران وتركيا، أندونسيا والملايو، والجمهوريات الإسلامية فى أواسط آسيا.

إن مهمة مراكز أبحاثنا وأجهزة إعلامنا ليس شرح " نهاية التاريخ " بل إبداع " بداية التاريخ". وذلك يتطلب الثقة بالنفس، والخروج من دائرة التبعية الفكرية للآخر، والقضاء على الاحساس بالنقص النظرى عندنا والتفوق النظرى للآخر.

لاتوجد نهاية مطلقة لشئ. إنما النهاية لشئ هى البداية لشئ آخر. فإذا ما أعلن الغرب نهاية التاريخ فلماذا لا يعلن العرب بداية التاريخ؟ ولاتوجد حضارة واحدة هى التى تحدد النهاية أو البداية لكل الحضارات والشعوب، فهذا أحد أشكال الهيمنة. إنما التاريخ متعدد المسارات بتعدد الحضارات .

إنها مسؤولية العرب: هل يعلن الغرب نهاية التاريخ له ولغيره أم يعلنون هم أنفسهم بداية التاريخ لهم دون غيرهم؟

٧ ـ الحضارات، صدام أم حوار؟

كما أفرز الغرب إعلان "نهاية التاريخ" موصلاً سقوط الشيوعية واستمرار الرأسمالية فإنه أعلن أيضاً "صدام الحضارات" مشرّعا لهجوم الغرب على الحركات الإسلامية مباشرة أو من خلال نظم الحكم القائمة. وكالعادة انبرى المثقفون والمحلّلون العرب شرح النظرية الثانية والتعليق عليها والدوران فى فلكها بين قابل ورافض حتى يظل زمام المبادرة التاريخية والثقافية فى يد الغرب. فالمركز هو المركز، والأطراف هى الأطراف.

لقد أقر الغرب بهذا الاعلان الثانى ما كان يمارسه بالفعل فى الشعوب المستعمرة قديما وما زال يمارسه فى الشعوب المتحررة حديثا. لقد حاولت فرنسا القضاء على الثقافة واللغة العربية فى الجزائر منذ القرن الماضى ثم فى تونس والمغرب فى بدايات هذا القرن. كما حاولته انجلترا مع الهند حتى أصبحت اللغة الانجليزية أو تكاد لغة وطنية بدعوى توحيد الهند. وانتشرت مراكز الثقافة الأجنبية فى كل البلاد العربية لتنشر ثقافاتها فى موازاة الثقافات الوطنية ثم منافسة لها ثم بديلا عنها على الأقل عند قطاعات كبيرة من النخبة خاصة فى لبنان. وانتشرت فى البلاد العربية حركات تدعو إلى الفرانكفونية أو الأنجلوفونية، متصارعتين أو متعاونتين من أجل شق الثقافة الوطنية.

وبالإضافة إلى هذا الاعلان الشرعى للممارسات العملية انشغلت الثقافة العربية وكأن المعارك السياسية والاقتصادية ما هى إلا تعبير عن صدام الحضارات. فتوارت عن الأنظار، مما يحقق الهدف الثانى لإعلان صدام الحضارات، وهو تهميش الاهتمام بالشركات العابرة للقارات، والرأسمالية العالمية، والاقتصاد الحر، وقوانين السوق، وشروط البنك الدولى، وصندوق النقد، والزيادة فى نفقات التسليح والتجارب النووية. والعرب مولعون بالثقافة، ويسيرون فى الخصخصة، ويهرولون فى السياسة، وراضون بالاعتماد فى الغذاء والسلاح على الأجنبى.

البيان ١٢/٢/١٩٩٦

والسؤال هو: هل صحيح أن الحضارات فى صدام؟ وماذا يعنى حوار الحضارات إذن؟ وكيف يبقى الصدام فى عالم تنتهى فيه الصراعات ويعم فيه السلام؟ وهل تنفصل المعارك الثقافية والحضارية عن المعارك السياسية والاقتصادية؟

لم يعرف العرب فى ماضيهم صدام الحضارات. كانت شبه الجزيرة العربية فضاء مفتوحا للثقافات المجاورة، اليهودية والنصرانية والفارسية والحبشية. وكانت التعددية الثقافية أمراً طبيعيا يمارسه العرب دون صدام بين هذه الثقافة أو تلك. وكانت الثقافة العربية المحلية قاسماً مشتركاً بين الثقافات الوافدة توحّد بينها على مستوى الرؤية والواقع، فى اللغة والتصور والعادات والأعراف.

واستمر الحال كذلك بعد ظهور الاسلام. وعبّر القرآن عن أعلى مستوى من مستويات الحوار فى عرض الديانات الأخرى وحجج أصحابها والرد عليها بل وقبول بعضها من اليهودية والحنيفية. فالقرآن أتى مصدقا للكتب السابقة ومهيمنا عليها أى مكملا لها.

وفى عصر المأمون، وبعد تأسيس ديوان الحكمة، بدأت ترجمة تراث القدماء، يونان وفارس والهند، دون خوف أو تهيّب أو عزلة أورفض أو تكفير. كان الاسلام منتصرا، وكانت جيوشه قد فتحت العالم القديم كله من المغرب والاندلس حتى خراسان، فى أوربا وأفريقيا وآسيا. وقام بذلك نصارى الشام ورهبانه الذين كانوا نصارى دينا وعربا لغة وثقافة. وقامت أكبر عملية ترجمة فى العصر القديم للتراث اليونانى والفارسى والهندى. ثم بدأت عمليات التعليق والشرح والتلخيص ثم العرض والتأليف ثم الإبداع. تم ذلك كله فى حوار خصب مع الثقافات القديمة. ولم تُعظّم حضارة حضارات أخرى كما عظّمت الحضارة الإسلامية الناشئة الحضارات اليونانية والفارسية والهندية. فأرسطو هو المعلم الأول، وجالينوس فاضل القدماء والمتأخرين، وسقراط أحكم البشر، وأفلاطون صاحب الأيد والنور. الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية أختان رضعيتان، متفقتان بالطبع، متحابتان

بالغريزة. الدين والفلسفة متفقان فى الغاية، طلب الحكمة، وإن اختلفتا فى الوسيلة، الوحى والعقل. ولكن الوحى والعقل متفقان من .حيث الغاية والهدف، إسعاد البشر. معرفة الثقافات الأخرى والحوار معها واجب دينى، طلب العلم ولو فى الصين، والمسلم يأخذ الحكمة حتى ولو كانت من الأمم القاصية عنه كما قال الكندى. ولاينشأ الصراع بين الفلسفة والدين إلا من أجل مصالح شخصية وصراع على السلطة والمنصب.

بل تم تأسيس علم المذاهب والفرق وهو ما يعادل تاريخ الأديان المقارن والحضارات المقارنة لمعرفة أوجه الاختلاف والاتفاق بين ديانات الشعوب وثقافاتهم. ويبدأ بعرض الفرق غير الإسلامية قبل الفرق الإسلامية تقديراً الثقافات الشعوب، وحواراً معها، وتطبيقا للتوجه القرآنى ﴿لا اكراه فى الدين﴾ أو آية المباهلة﴾﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله﴾.

وفى مرحلة تالية، وفى لقاء ثان بين الاسلام والغرب أثناء الحروب الصليبية كان الاسلام فى موضع قوة بعد انتصار صلاح الدين. وكان الغرب فى موضع ضعف على المستوى الاقتصادى والسياسى والعمرانى وأيضاً على المستوى العلمى الثقافة. بدأ حوار جديد بين الثقافة العربية الإسلامية بعد أن تمت ترجمتها إلى اللاتينية مباشرة أو عبر العبرية وبين الثقافة الغربية فى العصر الوسيط المتأخر وحتى قبيل عصر النهضة. بدأه معظم الفلاسفة والعلماء وعادته الكنيسة لأنه كان يمثل خطراً على العقائد الكنسية، أسرارها وسلطتها واحتكارها. وتعلم الغرب العقلانية وإعمال العقل فى النص وفى فهم العقيدة. كما تعلم العلوم الطبيعية التجريبية والمنهج العلمى لمعرفة الظواهر واكتشاف قوانينها. كما تعلم أساليب العمران وتخطيط المدن بعد عودة الصليبيين. وكان من نتيجة هذا الحوار الحضارى النهضة الأوربية الحديثة فى القرن السادس عشر.

ولما بدأ الغرب الاستعمارى الحديث منذ ما أطلق عليه "الكشوف الجغرافية" فى القرن الخامس عشر وبعد سقوط الأندلس ورغبة الغرب فى الالتفاف حول العالم القديم بحراً بعد أن فشل فى الاستيلاء عليه برا أثناء الحروب الصليبية فى أخذ مكان الصدارة فى العالم بدأ ينشر حضارته من منطلق قوة. وبدلاً من الحوار مع حضارات الشعوب التى تم غزوها فى أفريقيا وآسيا وأمريكا بدأ يستأصل هذه الثقافات والقضاء على هذه الشعوب طمعا فى أراضيها وثراوتها وأخذ سكانها عبيدا لبناء حضارته وشق طرقه وإقامة صناعاته وبناء عمرانه. وبدأت أكبر عملية سلب فى تاريخ الشعوب والثقافات، كل شئ يتحول من الاطراف إلى المركز. فالعلاقة بينهما علاقة صراع وتضاد، وليست علاقة حوار وتفاهم مشترك.

وبدأ التبشير يتصدى أيضاً لثقافات الشعوب ودياناتها من أجل القضاء عليها باسم التنصير كمقدمة ثقافية وحضارية لاستتباب الاستعمار السياسى والاقتصادى؟ وتحول صراع الحضارات إلى قضاء حضارة المركز على حضارات الأطراف. فإذا استطاع حول ما تبقى منها إلى المتاحف لتاريخ الانسان والشعوب البدائية. وأسس لذلك علوما جديدة، الأنثروبولوجيا، والاثنولوجيا، والاثنوجغرافيا. بل وقام بتبرير هذا الصراع بنظريات فى التبادل الثقافى أو التفاعل الثقافى أو التداخل الثقافي. وهى فى الحقيقة غطاء نظرى لمحو ثقافة المركز لثقافات الأطراف والقضاء عليها .

وقد ساعد على ذلك ارتقاء الغرب الحديث إلى مركز الصدارة، واستنفار مركزيته الرومانية القديمة، واستثارة عنصريته الدفينة، وبعثت فيه الرومانية القديمة. وبالرغم من انتشار المسيحية فوقه إلا أنها ظلت على السطح، ولم تدخل إلى القلب. فغلبت عليه المادية وتصور العالم كسوق يقوم على الربح والتنافس بل والصراع. وانعكس ذلك فى الثقافة فأصبحت أحد عناصر هذا الصراع.

ونظراً للانتصارات العلمية التى أنجزها الغرب الحديث، ونظراً لاقامته المجتمع المدنى الذى يتأسس على الحرية والديموقراطية والقانون والعقد

الاجتماعى، ففيه أيضاً قد تم إعلان حقوق الانسان والمواطن، ووضعت أسس التنوير أصبح الغرب نموذجا للحضارة العالمية ومقياس تقدم البشر. فنشأت امتدادات لها فى ثقافات الأطراف فيما عرف باسم "التغريب". وكلما ازداد التغريب قوى الدفاع عن الثقافات المحلية. وكلما اشتد هجوم ثقافة المركز على ثقافات الاطراف تشويها لها فى أجهزة الاعلام والكتب المدرسية بدأ الصراع معها ونقدها للتخلص من آثارها.

وهذا هو الذى يفسر عداء الحركة الاسلامية المشروع لثقافة الغرب، رفضا للتغريب ودفاعا عن الهوية والثقافة الاسلامية التى أصبحت الرافد الرئيسى فى الثقافة الوطنية. وفى هذه الحالة، ثقافة الغرب الحديث مع الثقافات الوطنية، ينشأ صدام الحضارات.

ينشأ صدام الحضارات إذن عندما تأخذ حضارة واحدة صفة الحضارة العالمية، وتجعل نفسها معيار كل الحضارات، وتنفى عن نفسهما الطابع التاريخى الصرف وكأنها الحضارة الحق، وكل ما سواها من الحضارات، محلية، تاريخية، لاعقلانية سحرية، خرافية، بدائية، متخلفة، دينية، رجعية، أسطورية إلى آخر هذه السمات التى أطلقت على الثقافات فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وهى حالة فريدة من نوعها فى تاريخ الحضارات. فالصراع مفروض من طرف على طرف، من المركز على الاطراف.

وينشأ حوار الحضارات عندما تكون الحضارات المتحاورة على مستوى الندية تأخذ وتعطى، تتفاعل وتتبادل الألفاظ والتصورات. ولا يكون الهدف من ذلك السيطرة لإحداها على الأخرى وإعطاء المشروعية أو التمهيد للهيمنة الاقتصادية والسياسية. والحضارة الإسلامية عبر التاريخ كانت نموذجا لهذا الحوار.

والحوار بين الحضارات حوار بين الداخل والخارج. ولا يتم إلا بحوار الداخل مع الداخل أى عندما تكون الحضارة نفسها قائمة على حوار داخلى بين تياراتها الفكرية المختلفة دون استقصاء واستبعاد، ودون تكفير أو تخوين. فالحوار

أسلوب فى التعامل مع النفس أولا قبل أن يكون أسلوبا فى التعامل مع الآخر، وانفتاح على الداخل قبل أن يكون انفتاحا على الخارج.

وشرطه عدم امتلاك الحقيقة مسبقا، وقفل باب الاجتهاد، وتمثل قول الشافعى: أنا على صواب وقد أكون على خطأ، وأنت على خطأ وقد تكون على صواب. وذلك يستلزم عدم التعصب للرأى، وعدم تحكيم أهواء النفس وانفعالات البشر، مع قدرة على مجاهدة النفس من أجل الاقتراب من الآخر.

وشرطه أيضاً تجاوز الالفاظ والتصورات والاعتقادات إلى الأفعال. فخير حوار هو الحوار العقلى، والتنافس على الخير لتحقيق مصلحة عامة وهدف مشترك. لا يكون الحوار نظريا، لغويا، عقائديا، تاريخيا فيما مضى من أحداث، بل يكون عمليا، نفعيا، مستقبليا، فى التحديات المشتركة بين المتحاورين.

صراع الحضارات طارئ. يظهر فقط فى حالة الهيمنة لحضارة على أخرى. وحوار الحضارات هو الدائم. الصراع وقتى ريثما يتم التحرر من الثقافة المسيطرة، والحوار مستمر من أجل الاثراء المتبادل. وهو ما قصدته الآية الكريمة ﴿ يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، أن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير ﴾.